مقدمة

النقد ناحية من نواحى الحياة الفكرية بذلت فيها الإنسانية جهوداً شاقة . ولكن هذه الجهود الضخمة لم يكن نصيبها التوفيق الدائم ، فهى كثيراً ما ضلت الطريق وانحرفت عن الغاية المنشودة ، والذى يطيل النظر فى تاريخ النقد ويتابع مذاهبه فى العصور المختلفة وعند أغلبية النقاد قمين بأن يلحظ كثرة ما شاع فيه من ضلالات وأوهام وآراء خاطئة وأحكام فاسدة . ويعتقد بعد ذلك أن من واجب النقاد أن يأخذوا أنفسهم بشىء من التواضع والاعتدال ويقللوا من الزهو والاستعلاء والتحدث بالنغمة العالية واللهجة الحاسمة . وألا يتكلفوا أن يقفوا من الكتاب والشعراء موقف الحداة الملهمين والمرشدين المدلولين على الصواب المعصومين من الخطأ .

وحقيقة أن الناقد فى العصر الحديث يتزود بأسلحة كثيرة من علم النفس وفلسفة الجمال وعلم الاجتماع والتاريخ ، ولكن النقد بعد كل شىء أو قبل كل شىء مرده إلى الذوق والبصيرة ، والناقد كالشاعر يولد ولا يصنع .

ولقد كان بعض النقاد يفتن فى اختيار الصفات والنعوت للمؤلفين وخلع الألقاب عليهم ، فهم مجرمون ومفسدون وكذبة وأدعياء ، وكان جيتى وأرنولد وسنت بيف وتين من أكبر العقول وأعظم النقاد ومع ذلك لم تسلم أحكامهم من المآخذ ولم تبرأ من العيوب فما معنى ذلك ؟ معناه أنه إذا كان العالقة فى عالم النقد مستهدفين للخطأ والانحراف ، فمن الواجب على الأقزام أن يتريثوا ويترددوا قبل أن يضفوا على أنفسهم برد الأستاذية ويجلسوا مجلس القضاة والمحكمين .

وهناك مسائل كثيرة كانت تفسد النقد وتبعد به عن الجادة منها التحيز السياسى والتعصب الدينى أو الطائفى والنزوات الشخصية . والنجاح الذى يبهر أبصار النقاد فى بعض الأحيان قد يكون سببه استجابة الكاتب لنزعة اجتماعية طارئة أو اتجاه عارض لا عبقرية خالقة ممتازة .

ونحن نبذل جهدنا لإدخال العقل والمنطق والتعليل فى دنيا لا نستطيع أن نثق الثقة كلها من أن أمورها تسير على أصول العقل والمنطق والتعليل ، والحكمة العاقلة هى التى تعترف بحدودها . وقد حاولت فى الفصول المختلفة الآتية أن أذكر بعض المقاييس الأدبية والنظرات الانتقادية والتأثرات التى ألمت بنفسى حيال بعض الشعراء والكتاب . ولكنى بطبيعة الحال لا أحاول فرض هذه المقاييس أو النظرات أو التأثرات على أحد ؛ لأنى أعلم – برغم محاولتى أن أكون موضوعياً – أن آرائى عرضة للتأثر بذوق وعقلى المحدودين وشخصيتى الجزئية .

وأدب أى أمة قد يرسم لنا صورة صادقة لحياتها إذا فسر تفسيراً صحيحاً ، وقد يكون فيه شىء من المبالغة أو التشويه ، ولكن يمكن إلى حد ما الاعتماد عليه والرجوع إليه لأن للفنان بصيرة أعظم وإحساساً أرهف وإدراكاً بديهياً مباشراً . فهو يمثل جانباً من حياة أمته وروحها وتقاليدها . ولا نزاع فى أن للنقد أهمية كبيرة فى العصر الديمقراطى . ولقد قال كارلايل إن الناقد يقف مفسراً وشارحاً بين الملهمين وغير الملهمين . وحقيقة أن العبقرية تشق طريقها وتخلق جمهورها ولكن النقد يعين على تمهيد السبيل وتهيئة الجو المناسب ، وإذا كانت هذه الفصول المجموعة تلقى شيئاً من الضوء الذى يعين على تفهم بعض مشكلات النقد والأدب فقد أدت الغاية المبتغاة من وراء جمعها فى هذا الكتاب .

على أدهم